جامعة تلمسان

كلية العلوم الإنسانية والعلوم الاجتماعية

قسم علم الآثار السنة الجامعة: 2023 – 2024

المستوى : السنة الثالثة السداسي : الثاني التخصص: الآثار الإسلامية

عنوان المقياس: حلقات البحث

أستاذ المادة: أ.د بلحاج معروف

Email:archeomarouf@gmail.com

عنوان الدرس مدينة المنصورة الأثرية في المصادر التاريخية2

المنصورة في عهد أبي الحسن علي

عندما تولّى أبو الحسن المريني الحكم دعا أبا تشفين الزياني إلى الكف عن مطاردة الموحدين ولم يمتثل لدعوته فجهز جيشا قصد الاستيلاء على تلمسان، وفي سنة 735هـ/ 1234م وصل إلى مشارفها وحاصرها مدّة عامين وفي737هـ/1236م دخلها عنوة، وقتل سلطانها، وأثناء الحصار أحيا معالم المدينة التي بناها جدّه أبو يعقوب من جديد.

وقد تحدّثت عن مدينة أبي الحسن بعض المصادر التاريخية التي نذكر أهمّها فيما يأتي:

يعد المسند لمؤلّفه ابن مزوق (781–710هـ/ 1310 – 1389م) من أهمّ المصادر التي قدّمت لنا معلومات جدّ مفيدة عن مدينة المنصورة في مرحلتها الثانية، حيث يذكر أنّ أبا الحسن المريني شيّد مدينتين سمّاهما "المنصورة"، ويتعلّق الأمر بمنصورة سبتة ومنصورة تلمسان التي يخبرنا أنّها ذات خصائص معمارية تميّزها عن المدن الأخرى، فالقصر ومسكن الإمام يعدّان حسب ابن مرزوق من أفخم العمائر وأروعها، وذلك اعتمادا على مقولات الرحالة والمتجولين الذين كان لهم شرف الاطّلاع على عمائر العراق والشام ومصر والأندلس والمغرب[50].

لقد أبدع إبن مرزوق[51] في وصف الجامع الكبير الذي ما زالت آثاره باقية إلى يومنا هذا فجعله في المرتبة الثانية من حيث اتّساعه وجماله بعد جامع قرطبة[52] ***(17)*** ، حيث يذكر أنّ الرحالة والمتجوّلين الذين عاينوه عن قرب اعتبروه فريد في نوعه من التاجيتين المعمارية والزخرفة، ثم قارنه أيضا بجامع الكتبيين[53]. بمراكش ليخلص أنّه يفوقه فخامة وحسنا وجمالا، لما يحتويه من رخام مجزّع دقيق الصنع، كما قام بوصف المئذنة فاعتبرها فريدة في نوعها في

---

[50] – ابن مرزوق محمد التلمساني : المسند الصحيح، تح : ماريا خيسوس بيفر، إصدارات المكتبة الوطنية ، الشركة الوطنية و التوزيع ، الجزائر 1981 ،ص: 747

[51] – المصدر نفسه، ص:402.

[52] – جامع قرطبة شيد بأمر من الخليفة الأموي عبد الرحمنبن معاوية سنة 785–788م وقد شهد عدة إضافات في مراحل تاريخية مختلفة ، وخاصة في عهد السلطان عبد الرحمن الثاني(822–912)، وفي عهد الحكم المستنصر (961–976م)..

[53] – جامع الكتبية أمر بتشييد هذا الجامع الخليفة الموحدي عبد المؤمن بن علي (1130–1163م)وكان من أروع ما انتجته العمارة الاسلامية المغربية، 'ويبدو أنّ مئذنة الجامع التي بدأ بناؤها في عهد خلفائه أصبحت نموذجا رائعا لطراز المآذن المربعة ينظر:

Elie Lambert, L'Art Musulman d'Occident, des Origines à la fin du XVI siècle, Société d'édition d'enseignement supérieur Paris V ,Paris, 1966 ,pp:52-53

كلّ أنحاء العالم الإسلامي، ثم أشار إلى وجود ممرين صاعدين إلى أعلاها يتّسعان لأكثر من شخصين راكبين، وذكر أنّه صعد إلى قمّتها شخصيا أكثر من مرّة رفقة السلطان المريني أبي الحسن فوقظهر بغل أو فرس. ويُفهم من حديثه أنّ المئذنة كانت كاملة البناء في عهده وما النقص الذي هي عليه حاليا إنّما كان في أغلب الظن بسبب تعرّضها لكارثة طبيعية في فترة تاريخية لاحقة.

ويواصل المؤرّخ كلامه عن الجامع فيحاول مقارنة منبره بمنبري جامع الكتيبين وجامع قرطبة، فيرى أنّ المقارنة هنا لا تجوز لما يحمله منبر جامع المنصورة من آيات الجمال والإبداع الفني والزخرفي، إذ كان يحتوي على عناصر زخرفية دقيقة وصغيرة الحجم تشبه حبّات البندق والحمص والبيرة[54].

وينتقل ابن مرزوق بعد ذلك إلى وصف جامع القصبة الذي لم يبق له من أثر اليوم، فيعدّه قمّة في الهندسة المعمارية الإسلامية من ناحية التخطيط وجمال الشكل وإحكام تحصينه، إضافة إلى ما يحتويه من أثاث جميل مثل الثريات الفضية أو النحاسية والمنبر[55]، ثم يعطي المؤلّف أمثلة لبعض المساجد الصغيرة المنتشرة في المدينة مثل المساجد التي تحاذي باب الحجاز وباب فاس وباب هنين[56].

وفي أثناء حديثه عن مدينة المنصورة يتطرّق ابن مرزوق إلى بعض المنشآت العمومية فيصف المدرسة المحاذية للجامع، ولم يغض النظر هنا عن ذكر المواد التي استخدمت في الزخرفة مثل الجص والزليج المتقن الصنع والرخام المجزع والخشب[57].

كما لم يغفل مصدرنا عند تناوله للعمائر عن ذكر بعض وسائل الري المستعملة مثل القنوات والسواقي[58].

يُفهم من خلال ما نقله ابن مرزوق عن مدينة المنصورة ومنشآتها المعمارية أنّه قد استقر فترة من الزمن في مدينة المنصورة التي خربت أثناء بداية تأليفه لهذا الكتاب.

---

[54] – Elie Lambert,Op.cit, pp : 120-121

[55] – **ابن مرزوق**،المصدر السابق، ص:402

[56] – المصدر نفسه، ص403.

[57] – المصدر نفسه ، ص406.

[58] – المصدر نفسه، ص*:403*

كان التنسي موجزا في تناوله للمدينة في عهد أبي الحسن المريني ن, وقيامه ببناء مدينة جديدة بالقرب منها،و التي صارت بعد رحيله من المنطقة خرابا[59].

تطّرق عبد الرحمن بن خلدون و السلاوي إلى إعادة إعمار أبي الحسن المريني لمدينة المنصورة وإحياء معالمها من جديد، كما ذكرا طريقة حربية استخدمها هذا السلطان لاستيلاء على تلمسان، ويتمثل هذا التكتيك الحربي في بناء أبراج ثم رمي العدو منها بالنبال، وعند تقهقر العدو يبنى برج آخر متقّدما، وهكذا حتى قرب من خندق تلمسان، وهناك شّيد برجا أخيرا تمكّن بواسطته السيطرة على العاصمة الزيانية حيث دك أسوارها المنيعة بالمنجنيقات[60].

نقل إلينا يحي بن خلدون خبر حصار أبي الحسن المريني لمدينة تلمسان سنة 735هـ /1334م، وما ترتب عنها من إعادة مدينة المنصورة من جديد حيث إتخذها مقرا له و لجيشه ونسيها إلى النصر ثم ‘ستولى على تلمسان، وقتل سلطانها أبا تشفين بن أبي حمو الزياني[61].

الاستنتاج من خلال المصادر التاريخية:

إن من عادة المسلمين عند بناء مدينة إسلامية الابتداء بتخطيط المسجد الجامع قبل كل المنشآت الأخرى العمومية منها كالحمامات و الفنادق و المستشفيات و الأسواق أو الرسمية كدار الإمارة و القصر و غيرها من المرافق الأخرى ، لكن ما حدث في المنصورة كان خلاف ذلك ، فالمصادر التاريخية تجمع على أن أول منشأة اختطها أبو يعقوب كان القصر الذي شيد بموضع الفساطيط، و عند الانتهاء من بنائه أقام إلى جواره مسجد تقام فيه الصلوات الخمس و أحاط هاتين المنشأتين بسور . لا شك أن هناك أسباب جعلت هذا السلطان يتصرف على غير عادة سابقيه من مؤسسي المدن الإسلامية بالمغرب الإسلامي (القيروان و تيهرت وفاس و مراكش....الخ) لقد أعطانا ابن أبي ورع سببا يبدو في نظرنا مقنعا فحلول أول فصل شتاء عليه و على جيوشه في المنطقة كان قاسيا ،و لم تكن تلك الخيام كافية لوقايتهم و أدرك أن غايته المنشودة لن تتحقق في هذه الظروف الصعبة فما

---

[59] – التنسي المصدر نفسه ص: 200–202.

[60] – ينظر ابن خلدون (عبد الرحمن) : المصدر نفسه، مج، ص: 534–535. السلاوي : المصدر نفسه، ج :3، ص:124.

[61] – ابن خلدون (يحي) المصدر نفسه، ج: 1 ص: 219.

كان منه أمام إصراره و عزمه هذه المرة على اقتحام أسوار تلمسان إلا إصدار أمر ببناء قصر يأويه و جنوده من قساوة الطبيعة.

لقد اتفقت جميع المصادر السابقة الذكر على أن تاريخ تأسيس المنصورة كان سنة 698هـ/1299م باستثناء السلاوي الذي قدم سنة 702هـ/ 1303م كتاريخ لبداية وضع الأسس الأولى لبناء المدينة الجديدة بينما يتخذ المؤرخون الآخرون نفس هذا التاريخ كحد لانتهاء أشغال بناء المنشآت العمومية و الخاصة و في هذا التاريخ يأمر أبو يعقوب بإحاطة المدينة بسور عظيم و بعد استقراء المصادر السابقة يبدو لنا أن المدينة حملت في بداية أمرها (في عهد أبي يعقوب)اسم المحلة أو تلمسان الجديدة ، ولم يطلق عليها اسم المنصورة إلا في عهد السلطان أبي الحسن ، و يمكننا الاستدلال على ذلك كون اسم المنصورة كان يقصد به التيمن و التبرك بالنصر،ولم يتم ذلك النصر المنشود و هو الاستيلاء على مدينة تلمسان إلا في عهد أبي الحسن علي.

ويفهم من المصادر التاريخية كذلك أنّ السلطان المريني أبا يعقوب أمر الناس ببناء دورهم و منازلهم بعد أن اكتمل من بناء قصره والمسجد المحاذي له وكذلك السور الذي أحيط بهما، وكانت هذه المجموعة بمثابة القصبة.

وهكذا شرع الناس في تخطيط منازلهم واتخذوا البساتين، وجلبوا المياه عبر القنوات والسواقي.

ولم يكتف أبو يعقوب ببناء قصبته فقط، بل أمر ببناء المرافق العامة الضرورية في حيات المدينة، فشيد الحمامات التي كان يجتمع فيها الناس مرة كل أسبوع على الأقل للاستحمام وإزالة ما علق على أجسادهم من أوساخ[62]. ولا سيما أنّ الأمر يتعلق هنا بالمسلم الذي هو ملزم بالطهارة البدنية غلى جانب الطهارة الروحية ، إذ لا بد ان يتوفر في المدينة الإسلامية عدد لا بأس به من الحمامات .وقد أمر أبو يعقوب أيضا ببناء الفنادق التي تشيد عادة قرب المداخل و تنعت بأسمائها، و الأسواق التي تعد من المرافق الضرورية حيث تتم المبادلات التجارية.

[62] – مسفورد لويس: المدينة على مر العصور، ج2، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة 1964، ص536.

وما يدل على اهتمام أبي يعقوب ومبالغته في إعداد مدينته إعدادا لائقا بمقامه ومقام دولته تشييده مستشفى لمداواة المرضى والجرحى، وممّا لاشك فيه أنّه وفّر له من الشروط والظروف المناسبة ما يساعد على شفاء المرضى وتحسين حالتهم الصحية.

إنّ ما يعاب على هذه المصادر أنّها لم تقدم لنا أيّة معلومات عن مواقع المنشآت التي يتم تحديد موضعها عادة بالنسبة للمدينة أو بالنسبة لمعلم هام مثل المسجد الجامع أو مدخل من مداخل المدينة.

ومما زاد الطين بلة أنّ معالم المدينة تم تخريبها بمجرد رحيل المربين عنها، وإذ أخذنا بعين الاعتبار الترتيب الوصفي الذي جاء به عبد الرحمن بن خلدون عن المدينة، فإننا نلاحظ أنّ أبا يعقوب لم يلتفت إلى إقامة مسجد جامع الذي يبدو انّه لم يكتمل بناؤه في عهده، إلاّ بعد أن أحاط المدينة كلّها بسور عظيم.

ويعد ابن مرزوق المصدر الوحيد الذي أمد الباحثين والآثاريين بمعلومات جد مهمّة عن مدينة أبي الحسن علي المريني وساعدهم على ضوء ما جاء به في إعادة تصوّر بعض منشآت المدينة، وخاصة فيما يتعلق بالمسجد الجامع ومئذنته، حيث تعرفنا من خلاله على ما كان يحتويه الجامع من أثاث وزخارف متنوعة جصية وخشبية ورخامية، كما ساعدنا على تصوّر مخطط الجامع، وإعادة تصوّر شكل المئذنة التي وصلت إلينا مبتورة النصف فأعطانا فكرة واضحة عن الممر الصاعد الذي كان يؤدي إلى أعلى المئذنة، ولكن معلوماته في هذه النقطة بالذات تحتاج إلى القيام بتصور افتراضي للتحقق من الممر الصاعد الذي يفضي الراكب في دابته إلى أعلى المئذنة.